القيمة الأخلاقية من منظور طه عبد الرحمن

د.أمال موهوب
جامعة الجزائر2

الملخص :

ممّا لا شك فيه أنّ من السمات البارزة للألفية الثالثة هو الوعي بالنتائج والانعكاسات الأخلاقية المترتبة عن التقدم العلمي الذي شاهدناه في ميادين علمية متعددة مثل الطب، وعلوم الحياة والهندسة الوراثية.هذا العلم الذي حلّ كثيرا من الألغاز التي كانت مستعصية على الإنسانية، وساهم بقدر كبير في تحسين حياة الإنسان؛ولكنّه وفي الوقت نفسه خلق–العلم- إشكالات أخلاقية كبيرة ،إذ بات العلم يهدّد بزعزعة مبادئ **وقيّم أخلاقية** كانت إلى وقت بعيد تعتبر من المسلمات أي كانت تعتبر قيّما مطلقة.من هذا المنظور يحاول هذا المقال ضبط مفهوم القيمة الأخلاقية وفقا للمقاربة التي يقدمها المفكر المغربي المعاصر **طه عبد الرحمن**.

الكلمات المفتاحية: العلم،الأخلاق،الفلسفة، طه عبد الرحمن

Abstract:

There is no doubt that some of the main characteristics of the third millennium is the moral awareness of the results and consequences resulting from the scientific progress witnessed in different fields such as medicine, biology, and genetic engineering. No one can doubt that science has had resolved many problems humanity had faced, and greatly contributed to the improvement of human life; and yet this same science has been responsible for the emergence of serious moral problems, thereby becoming a threat to the establishment of moral principles and values which were considered in the past like fixed principles, i.e., absolute values. This paper tries to scrutinize the concept of moral value according to the Moroccan philosopher Taha Abderrahman.

Key words: science, morality, philosophy, Taha Abderrahman.

إنّ الوضع المتأزم الذي شهدته الألفية الثالثة أدى إلى ضرورة العودة إلى الفكر الأخلاقي والفلسفي في مواجهة انزلاقات العلم،وهذه العودة ساهمت في خلق أشكال جديدة من الحوار بين :الفلسفة ،والأخلاق والعلم.

إنّ الفلسفة في مبحثها الأخلاقي وبوصفها فكر نقدي،تنويري،تربوي وتوجيهي ووسيلتها في ذلك **الحوار** ساهمت في التحذير من الاستعمال المفرط واللاواعي للتقنية؛ ومن ثمّ فإنّ السؤال الجدير بالطرح : لماذا الفلسفة قادرة على ذلك؟

الفلسفة نشاط فكري منفتح على باقي المعارف الأخرى، فالفلسفة ترفض أن تتقيّد بمجال معين فهي شمولية ؛ وهذه الشمولية في المعارف أكسبتها القدرة على أن تكون فاعلة ومتفاعلة تجاه الأحداث والتحولات الكبرى سواء على مستوى التوجهات الجديدة التي عرفتها المجتمعات البشرية في مجال اختبار مصادرها أو على مستوى صيرورة الفكر ،والعلوم والتكنولوجيا.

بناءا على ماسبق ذكره يمكن أن نقول أنّ للفلسفة دورا كبيرا في نشر الوعي عن طريق **الفعل الأخلاقي**،وبهذا المعنى فالفيلسوف وحده قادر على إقامة حوار مع كل فعاليات المجتمع من سياسيين،وعلماء،ورجال الدين

والاقتصاديين؛فلها القدرة –هي وحدها- على جمع ولمّ شتات كل فئات المجتمع من أجل اتخاذ قرار يرضي كل الأطراف.

إنّ الفيلسوف بفضل سعة اطلاعه على المسائل العالقة وقدرته على الحوار،هذا الأخير –**الحوار**-الذي يعدّ لبنة جوهرية في التوعية والتنبيه؛ولقد نبّه إلى ذلك الفيلسوف المغربي المعاصر **طه عبد الرحمن** حيث وبصفته مشتغلا بالفلسفة فقد ركّز في أبحاثه على الجانب الأخلاقي وتطرق في مؤلفاته إلى ما يمكن أن ينتج من مزالق إذا لم تأخذ الأخلاق بعين الاعتبار فقد حث على إقامة **علاقة حوارية** بين الأخلاق ،والفلسفة والعلم.

من هذا المنطلق تريد هذه الورقة البحثية المتواضعة توضيح دور الفلسفة في جانبها الأخلاقي في ظل **التحديات الأخلاقية المعاصرة** بالاستناد إلى موقف **طه عبد الرحمن** من هذه المسألة وطريقة معالجته لهذا التحدي الراهن أي التحدي الأخلاقي في ظل التطورات العلمية المعاصرة،وحتى يتضح مسعانا لا بدّ من التطرّق إلى نقاط ثلاث :

1-تطور العلم في الفكر الغربي المعاصر من وجهة نظر طه عبد الرحمن.

2-انفصال العلم عن الأخلاق.

3-العودة إلى الأخلاق.

1-**تطور العلم في الفكر الغربي المعاصر من وجهة نظر طه عبد الرحمن:** لا خلاف في أنّ جذور الثورة العلمية تضرب في عمق الماضي ويعتبر عصر النهضة بداية هذه الثورة ،وما شكلته من نقطة تحول حاسمة في نظرة الإنسان إلى الكون،وما تبعه من كشوفات هائلة ومذهلة،تعبير عن قوّة العقل اللامحدود ،مثّله علماء عمالقة قلبوا نظام التفكير رأسا على عقب،وحطموا أبنية التفكير القديم وأرسوا دعائم تصور جديد للعالم والطبيعة قوامه منهج يخضع الظواهر الطبيعية إلى الوصف التجريبي الواقعي لا إلى الاستنباط العقلي، وبأدوات ووسائل علمية دقيقة تضمن حظوظ الانسان في السيطرة على الطبيعة بعد أن كان خاضعا لها.إذ بلغ التفكير العلمي قمة نجاحه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتلاحق التطبيقات العلمية التي غيرّت وجه الحياة في العالم ،وما رافقها من اختراع للآلات ، الأمر الذي نجم عنه سيادة نوع من الإيمان المتطرف بالعلم،وأنّ الحقيقة في جميع مجالاتها لا تتكشف إلاّ عن طريق منهج تجريبي وبتقنية غاية في الدّقة.إذن إذا كان العلم يشير إلى مجموع المعارف النظرية المتصلة بحقل معرفي معين كالبيولوجيا، والرياضيات، والفلك، والفيزياء ... فالتقنية تشير إلى التطبيقات العملية للمعارف العلمية والتكنولوجيا هي علم تطبيق المعرفة وكما هو معلوم اليوم يعدّ التقدم العلمي والتقني من أبرز الظواهر التي تميز المرحلة المعاصرة لأنّ العالم لا ينتج العلم وهو مقطوع الصلة بالمجتمع ومن ثمّ فهو في علاقة جدلية بين عمله في المجتمع وعمل المجتمع فيه.

لقد عرف هذا القرن سيطرة الفكر الأداتي الذي يرى أنّ التقنية كافية وحدها لتحقيق التقدم،فقام هذا الاتجاه بتحويل علاقتنا بالعمل وبالآخرين حيث أصبحت هذه العلاقة مادية أكثر ممّا هي إنسانية والنتيجة المترتبة على ذلك موت للعاطفة،والتأمل وتلاشي الأخلاق. لقد عملت التقنية على تخريب كل أنماط العلاقات الاجتماعية الموجودة بين الكائنات الانسانية وهذا عن طريق فرض الهيمنة ونقصد بذلك هيمنة الاتجاه المادي على كل الفروع المعرفية فلم يسلم علم النفس،ولا علم الاجتماع ولا الاقتصاد من هذه الهيمنة فعمل هذا الاتجاه على محاربة كل ما له صلة من قريب أو من بعيد بالأخلاق أو بالدين أو بالميتافيزيقا؛وهذا لأنّ حسب الاعتقاد السائد أنّ العلم وحده كاف للوصول إلى المعرفة ، و التقيد بالمنهج العلمي يسمح بالقضاء على كل التفسيرات الميتافيزيقية التي هي في حقيقة الأمر سوى تأويلات وهمية دون أي محتوى علمي.

لقد سمح الاتجاه الوضعي بكشف زيف ادعاءات الميتافيزيقا على أنّ في متناولها البحث في كنه الأشياء،لكن وحسب هذا الاتجاه أثبت العلم أنّه يمكن البحث عن الحقيقة دون أن يكون هناك أي داع إلى معرفة متعالية وعميقة

،ودون التمسك بالماورائيات أو الأخلاق التي تعيق التقدم أكثر ممّا تطوره ،فالأخلاق والدين وكل ما يوحي بالقيّم والثوابت وجب محاربته وإزاحته وهذا بشعار لا أخلاق بالعلم ولا مرجعيات في العلم.

يرى **طه عبد الرحمن**،الفيلسوف المغربي المعاصر،أنّ العقلانية الحديثة جعلت من العقل والعلم إلهين جديدين،فالإيمان بالعقل وحده يعني أنّ العقل يصبح مرجعا تستند إليه المعايير المتغيّرة من أجل إبراز التقدّم [1]، والإيمان بالعلم يعني أنّ العلم وحده قادر على جميع المسائل الشائكة ،يعني أنّ الحداثة الغربية بموجب هذا المنظور في مجال العلم والتقنية قد قطعت أي صلة بالأخلاق أو الدين أو بصفة عامة كل ما يشكّل ويأخذ طابعا روحيا أو دينيا.

غيّرت وجه الحياة في العالم ، وما رافقها من اختراع للآلات،الأمر الذي نجم عنه سيادة نوع من الإيمان المتطرف بالعلم،وأنّ الحقيقة في جميع مجالاتها لا تنكشف إلاّ عن طريق منهج تجريبي وبتقنية غاية في الدّقة.

و في هذا السيّاق يعتقد **طه عبد الرحمن** أنّ الحضارة الأوروبية التي أنتجت العلم و التقنية و أمنت بالعقل وحدة هي حضارة ناقصة[1] لأنها أفرزت جملة من الآفات التي يتخبط فيها المجتمع الأوروبي أو المجتمع الحداثي.

و قد بيّن في مؤلفه سؤال الأخلاق، جملة من النقائص في العقلانية الأوروبية يجملها كالأتي:

1.**النسبية :** و هي النقيضة التي أفرزتها العقلانية في الحداثة الغربية، فإذا كان التصور الشائع بل المتفق عليه أن تكون مبادئ العقل كلية و ضرورية فإنّ طه عبد الرحمن يعترض على ذلك إذ يرى أنّها مبادئ نسبية أو أنّ حقيقة المنهج العلمي و العقلي نسبية و يستدل بذلك بتعدد الأنساق المنطقية، حيث نجد في العصر الراهن تعدد الأنساق المنطقية و المبادئ الرياضية و كل نسق يختلق عن الأخر تبعا للمسلمات و المبادئ التي يقوم عليها، وإن كانت هذه المبادئ نسبية و متغيرة فإن الذي يقوم عليها هو الآخر نسبيا و متغيرا فمن غير الممكن في نظر طه عبد الرحمن إنشاء خطاب علمي عن العقل الإنساني بوصفة حقيقة مشركة بين الناس[2].

و يقصد **طه عبد الرحمن** هنا الخطاب الغربي الذي كان مصدره العقل وحده و الذي لا يمكننا بالتالي أن نأخذه بحقيقة مطلقة لأن المصدر الذي أنتجه هو عقل نسبي.

2. **الإسترقاقية:** يرى **طه عبد الرحمن** أن الإنسان العربي اعتقد عند امتلاكه للمناهج العلمية و العقلية أنه سيحقق سعادته ،و نمط حياة أفضل مما كان يعيشه، بل إنها ستمكّنه من السيطرة على الكون بأسره لكن ما حصل حسبه هو العكس، فعلى خلاف ما هو متوقع فإنّ الطبيعة قد استرقته و أصبح هو في خدمتها و تحت سيطرتها و بهذا أصبحت الآلة أداة استعباد وليست أداة تحرر[3].

3. **الفوضوية:** إنّ شيوع المنهج العلمي والعقلي حسب **طه عبد الرحمن** أدّى إلى نشر الفوضى و اللامبالاة في الحضارة الغربية و هو الأمر الذي سار عكس ما هو مخطط له، إذ كانت الحضارة الغربية باسم العلم و العقل والتقنية تسعى إلى بلوغ هدفين أوّلهما النظام وثانيهما تحقيق كمال المعرفة،لكن هذا لم تشهده الحضارة الغربية من وجهة نظر **طه عبد الرحمن** ذلك أن مختلف النظريات العلمية تجدها تتعارض و تتضارب فيما بينها بل كل واحدة تدحض الأخرى،هذا التعارض من وجهة نظر **طه عبد الرحمن** ضار أكثر مما هو نافع و على حدّ تعبير **طه عبد الرحمن** هذا التعارض يؤدي الى مقاصد ضارة و ليست نافعة[4] .إنّ الملاحظة التي يمكن أن نبديها في هذا السياق :

أوّلا: أن فعل النقد الذي مارسه **طه عبد الرحمن** على الحضارة الغربية ليس نقدا من خارج السياق الفكري للحضارة الغربية الحديثة و إنّما تمّ النقد من خلال بنية الفكر الغربي و هنا تكمن قدرة هذا المفكر و الفيلسوف في أنّه ملّم ومطلّع على الأسس والآليات التي تتحكم في ذهنية الرجل الغربي ومنه فإنّ نقده للحداثة الغربية لم يأتي من فراغ معرفي ،أو من دراسة خارج عن النسق الأوروبي إنّما النقد تمّ من خلال معرفته بالفكر الغربي الأمر الذي مكنّه من تفكيك ومعرفة بنية هذا العقل الأوروبي.وبالتالي فإنّ نقده كان نقدا بناءا ،لأنّ النقد البنّاء فيما نعتقد هو النّقد الذي يتجه نحو معرفة المشكلة أو المسألة من داخل نسقها وليس من خارجها.

ثانيا: إنّ النقد الذي مارسه **طه عبد الرحمن** على الحضارة الغربية نقد ينسجم و يتماشى و روح **طه عبد الرحمن** الفلسفية، فهناك انسجام وتلاحم من فعل النّقد والفلسفة في فكره،وليس هناك تباعد فشتانا بين من يستعمل النّقد من أجل النّقد فقط ،أو من يستعمله كمرحلة مؤقتة في بحثه وبين من يؤمن به ويعيش به ومعه.وهذا ما نلاحظه في فكره-**طه عبد الرحمن**-إذ نلاحظ في كتبه أنّ فعل النّقد لم يكن غائبا أو متجاهلا أو مؤقتا وإنّما كان أسلوب حياة،وطريقة تفكير ونظام حياة لهذا جاء نقده للحضارة الغربية نقدا غير مبني على أهواء أو دوافع إيديولوجية،وعرقية ،وتاريخية وسياسية وإنّما نقدا موضوعيا يتماشى وروحه الفلسفية.

2-**انفصال العلم عن الأخلاق:** إنّ النقائص التي حدّدها **طه عبد الرحمن** في الحضارة الغربية جعلت الحضارة الغربية تتجه نحو اتجاه واحد وهو تأليه الطبيعة و العلم على حساب الدين،والأخلاق،والروح،والقيّم،والإنسان أي اتجاه مادي صرف؛ وبالتالي أصبح الطابع المادي هو ما يميّز الحداثة الغربية،ومنه أصبح النموذج المعرفي الغربي متحيّزا للموضوعي (للمادي) على حساب الذاتي ،أي لا شيء خارج المرئي أو الملموس ؛ومنه يمكن القول أنّ المادة هي مبدأ أصل النّظام المعرفي الغربي،ومن جراء ذلك يصبح العلم هو عقلنة للطبيعة،مستبعدا كل غائية علما أنّ الغائية هي مبدأ الفكر الديني،هذا إن لم نقل يقطع صلته بها.وبناءا على ما سبق ذكره نستنتج أنّ الحداثة الغربية قد أقامت نظامها المعرفي على مبدأ:" لا أخلاق في العلم"،أو ما يسمّيه جلّ الفلاسفة **اغتراب العلم عن الأخلاق .**

وقد ذكر **طه عبد الرحمن** في كتبه ولاسيّما كتابه سؤال الأخلاق انعكاسات فصل العلم عن الأخلاق،وأثرها على البيئة وعلى الإنسان.

إنّ العلم الحديث من منظور **طه عبد الرحمن** فقد الكثير من قيمه و معانيه السامية فأفصح في العصر الحديث عن معناه الحقيقي و لم يعد منتجا لوسائل التحرر و إنّما نسج أشكالا جديدة من السيطرة. إنّ الثقة الزائدة في العلم حولت الإنسان من وسيلة للتطور إلى وسيلة قمع وسيطرة ،ومن وسيلة بناء إلى وسيلة هدم وتدمير،ومن وسيلة تساهم في رفع القيّم الإنسانية إلى وسيلة تحقير لهذه القيّم ،فأصبح الإنسان مغتربا عن العلم،وهذا ما أكدته الحروب الحديثة التي زادها العلم قوّة كما أكدّته بعض المؤسسات الصناعية الكبرى التي أخضعت العلم لجلب المزيد من الأرباح.لقد أصبح الإنسان في المجتمعات المعاصرة –التي تعيش مرحلة ما بعد الحداثة والتي لعبت دورا في تقنين الإنسان وتغريبه-مجرد كائن مصطنع ومستهلك،ولم تعد ثقافته إلّا تمثيلا وتقليدا وتجسدا لما تقرّره لوبيات الأموال والبارونات من تصنيع لثقافة برجوازية تهدف إلى طمس هوية الإنسان وقمعه وجعله مجرد كائن مستهلك. لقد استطاع عصر التكنولوجية كما أكده **طه عبد الرحمن** أن يغيّر لمجتمع والاقتصاد؛ وحتى الحياة اليومية للإنسان ، وبإمكانها أن تغيّر شخصية الإنسان وهويّته عن طريق السيطرة على أسلوب تربيته والعمل على توجيه خبراته الشخصية وهذا عن طريق المؤسسات التي توكّل إليها مهمّة التطور التكنولوجي؛ولعلّ الحل الذي أوجدته العقلانية المعاصرة في تنفيد ما ترمي إليه هو استبعاد كل ما يوحي بفكرة الإنسان أو الأخلاق، والدّين أي فصل العلم عن الأخلاق حتى يسهّل عليها إحكام السيطرة،فلا تقاس أهمية الإنسان في الاتجاه المادي بقدرة الإنسان على الفهم والتحليل والتجاوز،وإنّما على توفير الإنتاج.ولهذا كانت نظرة هذا الاتجاه إلى الإنسان على أنّه مادة استعماليه يمكن توظيفه لأي غرض تجعله لا يخرج عن كونه مجرّد جزء من الطبيعة.

و يعتقد **طه عبد الرحمن** كما اعتقد **ماركيوز** H .Marcuse **وماكس فيبر** M.Weber من قبل أنّ إحكام السيطرة على الإنسان،و استبعاده عن الأخلاق هو اتجاه تدفعه دوافع غير علمية و غير أخلاقية،دوافع بالدرجة الأولى سياسية إيديولوجية تريد إفراغ المجتمع من القيم ،من الأخلاق و من التفكير النقدي البناء. فهذا الاتجاه يريد بناء إنسان رقمي آلي لا يتساءل ، و لا يفكر، و لا ينتقد، و لا يتجاوز و لا يفكر ؛إنسان بعيد عن المعتقدات الروحية و الدينية حتى تتمكن من برمجته لصالح أغراض نفعية فما هو مطلوب ليس إنسان يريد تحقيق غاياته وطموحاته، و إنّما إنسان له

استعداد أن تذوب فرديته و إنسانيته في بنى اقتصادية و اجتماعية و سياسية جاهزة، يتلقى الأوامر و ينفذها بكفأة عالية دون محاولة فهم ما ينتج أو ما يفعل أو محاولة تجاوز ما يطلب منه[5] .

إنّ ما يمكن الإشارة إليه أنّ **طه عبد الرحمن** لم يمكن معارضا للتقدم التكنولوجي و لا ناقما، و إنّما كان ضد الاستعمالات اللاعقلانية للعلم، الأمر الذي أدّى إلى فصل العلم عن الأخلاق أي أنّ المشكلة بالنسبة إليه لا تكمن في العلم ذاته و إنّما في استغلال نتائج العلم،ذلك لأنّ العلم لا يعني انعكاسات نتائجه على المجتمع فهو لا يحتوي في نسقه وعيا بنتائجه،إنّه على حدّ تعبير **إدغار موران I.Morin** العقل الباحث الذي لا يعرف عمّا يبحث:إنّ العلوم ليس لها وعي بالدور الذي تلعبه في المجتمع،ولا بالمبادئ التي تتحكم فيه،كما أنّها ليست واعية بأنّها تفتقر إلى وعي بذاتها.إنّ العلم باستطاعته أن يحقق انجازات هامة لكنّه غير قادر على أن يعيها ،إنّه فعّال،رائع لكن أعمى.[6]

إنّ الخطورة تكمن في استغلال نتائج العلم لصالح أغراض ليست في مصلحة الإنسان و هذا كله لسبب رئيسي هو فصل العلم عن الأخلاق. إنّ هذا الفصل قد جعل الإنسانية في أزمة خطيرة على حد تعبير **طه عبد الرحمن** مست المحيط الذي يعيش فيه الإنسان إذ تجلت مظاهرها في الاختلال البيئي من ارتفاع درجة حرارة الأرض جراء إفراط الإنسان في استخدام الطاقة وما نجم عنه من تلوث الجوّ ،وما يورّثه من أمراض ،واتساع ثقب الأزون وذوبان الجليد في المناطق القطبية وزيادة قوّة الأعاصير،والأزمة الأخطر تلك التي مسّت صميم الكائن الحي عموما، والإنسان خصوصا في تركيبته العضوية عبر ما يعرف باسم الثورة البيولوجية؛فالتقدم المذهل في البحوث البيولوجية وخاصة في نطاق الهندسة الوراثية،وهندسة الجينات كفيل بأن يحدث ثورة خطيرة تفوق القنبلة الذرية من خلال التلاعب بالجينات ومحاولة تغيير الخلق.و هذا ما أخذ ببعض العلماء و المفكرين من التخوف من بعض نتائج العلم التي قد تؤدّي إلى مثل هذه الممارسات الخطيرة في تبديل الجينات بين المخلوقات وخاصة عندما نجحت التجارب التي حوّل بها العلماء بعض الكائنات الدقيقة المسالمة إلى كائنات وحشية و لعل أهمّ ميدان استغلت فيه نتائج العلم هو ميدان الطب، فقد استعملت الإدارة الأمريكية بعض العقاقير الطبية في استجواب معتقلين في غوانتامو،و كانت تستعمل هذه العقاقير في الأصل لمعالجة الأمراض النفسية والعقلية ،بينما استعملته إدارة **بوش** في أغراض سياسية.إنّ كبار المسؤولين في إدارة **بوش** قد أعطوا الضوء الأخضر لأجهزة الاستخبارات بمختلف أقسامها ،و كذلك وزارة الدفاع بتعذيب المتهمين أثناء التحقيق معهم و ظهرت أدلة تفنّد بأن محققي وكالة الاستخبارات المركزية و القوات الخاصة قد استخدموا عقاقير ذات تأثير على العقل أثناء التحقيقات مع السجناء الذين يخضعون للاستجواب. إنّ الذي يميّز هذه العقاقير أنها تنتزع المعلومات من الشخص دون دراية منه،فكانوا يقومون بحقنه في ذراعه بمادة تجعله يشعر بالعياء،فيبدون كما لو كانوا مخمورين ،ومن الآثار التي تبدو عليهم: الخمول،والنعاس، والغثيان وبثور في الجلد،ولدرجة تأثر السجناء بتلك العقاقير كانوا يوّقعون اعترافا بأنّهم ينتمون إلى منّظمات إرهابية،أو إنّهم ارتكبوا عملا إرهابيا وفي كثير من الأحيان هم بريئون من هذه الاتهامات .

و في سياق الحديث عن الطلب فقد استعمل في القرن التاسع عشر لأغراض عسكرية امبريالية واتخذته الدولة المستعمرة بغرض سيطرتها على المجتمعات فقد اتخذت من مرض 'النوم'[*] حجة لتنفيذ أغراضها التوسعية في الكونغو و من مرض' البري برى'[**] طريقا للدخول في بلدان إفريقية بغرض التوسع أي بغرض الاستعمار، و قد اتخذت الدول الامبريالية باسم الطب،وباسم الإنسانية حجة للاستعمار[7].

ما هو ملاحظ في الأمثلة السابقة أنّ العلم انحرف عن مسعاه الحقيقي، و ابتعد عن القيّم الإنسانية وعن الأخلاق وعن الفكر الناقد الموّجه لهذا العلم ،ومتى ابتعد العلم عن الإنسان والفكر الناقد اغترب.والاغتراب هاهنا معناه أنّ العلم أصبح سلاحا شرسا فتاكا لا تحدّه حدود،ولا قيود أخلاقية ولا اعتبارات إنسانية ،ولا فكرية ممّا يعني ضمن هذه الرؤية أنّه لا جدوى من الحديث عن الفلسفة،و لا عن الأخلاق ولا الحديث بصفة عامة عن وعي ثوري يراقب العلم وينتقده.

بناءا على هذا فإنّ المشروع الحداثي حسب **طه عبد الرحمن** قد فشل فشلا كبيرا لأنّه لم ينجح في الإعطاء لمضمونه ولخطابه مصداقية ومشروعية،وأهم مصداقية حسب هذا المفكّر الصدق في العلم،وهو-الصدق-أهمّ معيار للنّجاح،أي ربط جملة من المعايير الأخلاقية بالعلم،لكن هذا لم يحدث في المجتمع الغربي وهذا راجع لاعتماده على الموضوعية والتي تعني لا أخلاق في العلم،وعلى هذا تصبح الحقيقة العلمية هي قضية تجريبية مرتبطة بالواقع (الخبرة)،وهنا تنتفي عنها صفة الصدق المطلق والضرورة،وحسب **طه عبد الرحمن** فإنّ الموضوعية التي تتبنّها الحضارة الغربية هي الموضوعية الجاهزة وليست موضوعية حركة،لأنّها تفصل الأحكام الذاتية عن موضوع البحث والدراسة.[8]

إنّ الحداثة الغربية حسب **طه عبد الرحمن** باعتبارها حداثة عقلانية –تعتمد على العقل والعلم لا غير-قد أقامت نظامها المعرفي على مبدأ لا أخلاق في العلم،ومبدأ لا غيب في العقل،وعلى هذا فحسبه **طه عبد الرحمن** فإنّ هذا العقل ناقص لأنّه يقوم على أساس من الحس والتجريد ولهذا فهو عقل منقطع ومنفصل،ولهذا كانت نتائجه نظرية جزئية لا ترقى إلى مستوى الفعالية والكمال لأنّه يقوم على أساس من الحس والتجريد ولهذا كانت نتائجه نظرية جزئية لا ترقى إلى مستوى الفعالية والكمال،لأنّه –حسبه-مهما بلغ هذا العقل من نتائج أو بلغ من الكمال فلا يمكنه إدراك الغيبيات؛ومن ثمة تظهر العقلانية في الفكر الغربي ،على أنّها دلالة زئبقية مادامت تتفلت عن كونها مرتبطة بمسائل الصدق والصواب والموضوعية.

يحاول **طه عبد الرحمن** أن يتملّك الحداثة الغربية ضمن رؤية مغايرة لنقدها،فهو يرى أنّ أزمة الحداثة في شقها النّظري وأيضا في شقها العملي ليست سوى أزمة أخلاق فإذا كانت العقلانية هي شعار العقل الحديث فإنّ هذه العقلانية -حسب **طه عبد الرحمن**- ليست سوى عقلانية مضيّقة وليست عقلانية موّسعة،ومن ثمّ فهي قد وضعت في أزمة ناجمة عن فصل العقل عن الغيب،ومن ثمّ فصل الأخلاق عن الدين وجعلها دنيوية غير مسدّدة بالوحي الإلهي؛انطلاقا من هذه الفكرة حاول **طه عبد الرحمن** إنشاء موقف نظري حقيقي مغاير للحداثة الغربية ولابدّفي هذا السيّاق من إبراز ملاحظتين في غاية الأهمية ومفادها:

أوّلا: إنّ مشروع **طه عبد الرحمن** واحد من أهم المشاريع البارزة في الفكر العربي المعاصر الهادفة إلى تحقيق حداثة إسلامية مأصولة قائمة على المجال التداولي في مقابل التبني الكامل أو الشبه الكامل لمبادئ الحداثة الغربية ممّا يعني أنّ **طه عبد الرحمن** ليس مجرّد عارف بالحضارة الغربية ولا ناقل لمعارفها،ولا مجتر لفكرها يعيد ما ينتجه الآخرون ، وإنّما تتجلّى عبقريته كفيلسوف في أنّه يساهم بحلول تتماشى وانتمائه العربي الإسلامي،إذ من خلال كتبه نلاحظ أنّه من الناحية المعرفية والنّفسية متوازن بمعنى أنّه صحيح مطلّع على الفكر الغربي،ولكنّه في الوقت ذاته لم يذب ولم ينحل في فكر الحضارة الغربية؛وبالتالي لم ينسلخ عن انتمائه الإسلامي،وهذا عكس بعض المفكرين العرب الذين انبهروا بإنتاج الغرب غلى حدّ إنكار دينهم وأوضاعهم وفي اعتقادنا أنّ **طه عبد الرحمن** –حسب قراءتنا المتواضعة-انطلق من مسلمة مفادها أنّه لا قيمة لأي إنسان سواء كان عالما ،أو فقيها،أو سياسيا أو فيلسوفا يتجاهل مجتمعه وانتمائه.

ثانيا:وهنا نقدّر شجاعة **طه عبد الرحمن** في قول الحقيقة إذ لا يخشى لومة لائم في أنّه صرّح بالأخلاق الإسلامية في ظل الحصار الذي يفرضه الغرب على الإسلام والمسلمين،وسكوت تام للمفكرين العرب.إنّ **طه عبد الرحمن** بشجاعته قد فعل كما فعل **سقراط** من قبل عندما فضلّ السجن وشرب السمّ على أن يحيد عن مبادئه؛فكذلك فعل **طه عبد الرحمن** الذي فضلّ التعبير عن أفكاره ورأيه بشجاعة وجرأة كبيرين،وهذه شجاعة تحسب له في تاريخه الفكري المشرّف فما أحوج الأمة العربية لمفكرين من أمثاله.

بالإضافة إلى هذا تتجلّى روح **طه عبد الرحمن** الفلسفية أيضا في انّه على وعي تام بقدرة الفلسفة -بواسطة النقد، والمراجعة،والأسئلة الجوهرية التي تطرحها،والحوار الذي تقيمه مع مختلف التخصصات-على إماطة اللّثام عن الكثير من المسائل التي لم ولن ينتبه إليها العلم.وبهذا قد تكون الفلسفة أحد الفروع المعرفية الهامة التي ساهمت في اعتقادنا في تكوين شخصية **طه عبد الرحمن** وتفعيل حسه النّقدي ،ويتجلى هذا في قدرته على نقد ودحض عيوب المجتمع الغربي ولعلّ أهمّ عيب هو فصل الأخلاق عن العلم و قد تفطّن **طه عبد الرحمن** إلى مخاطر هذا الفعل.

3-إنّ السؤال الذي ينبغي طرحه في هذا السياق ماهو الاقتراح الذي قدّمه **طه عبد الرحمن** لرأب الصدع بين العلم والأخلاق؟من أي منظور أعاد **طه عبد الرحمن** الاعتبار لسؤال الأخلاق؟

حاول الفيلسوف المغربي إعادة الاعتبار لسؤال الأخلاق باعتباره البوابة الرئيسية لإعادة إحياء الإنسان بعد ما تقاذفته المادية الناتجة عن عمليات العقلنة غير المسدّدة بالأخلاق،وكذا كصناعة موقف أصيل ومستقل عن الانطلاق منه للنقد وأيضا كمشاركة أصيلة إسلامية في تلك الحداثة الكونية.

إنّ أهمّ ما بدأ به **طه عبد الرحمن** في سياق حديثه عن الأخلاق والعلم،هو ربط العلم بالأخلاق الدينية فإنّنا نعني رفضه-**طه عبد الرحمن**-للأخلاق التي ترتبط بالعالم الدنيوي فقط،وهنا يجب الإشارة إلى أنّ **طه عبد الرحمن** قد نقد الأخلاق الكانطية،لأنّها حسبه قد ساهمت في فصل الأخلاق عن العلم؛وهذا لأنّ الأخلاق التي نادى بها **كانط** Kantوأعجب بها الفلسفة والناس هي أخلاق ،إذا تفحصناها بعقل ناقد، تكرّس انفصال الأخلاق عن العلم لأنّها أخلاق دنيوية ليس لها أي بعد ديني ،وروحي.فقد اعتبر **كانط** –حسب **طه عبد الرحمن**-أنّ الأخلاق تؤسّس على نحو عقلي ،إنساني وليس ديني؛فالتخلّق حسب **كانط** من منظور **طه عبد الرحمن** هو طبيعة في الإنسان لا يكتسبها من الدين،والأخلاق مكسب للإنسان الذي يستطيع أن يشرّع لنفسه أخلاقا.

ينتقد **طه عبد الرحمن** هذه الفكرة ويرى أنّ الإنسان الحديث شديد الغفلة لأنّه قد يتناسى أصله الأخلاقي المتمثل في الدين،وراح هذا الإنسان –حسبه-يعوّض الأخلاق بالعقلانية المجرّدة التي هي أقل رتب العقلانيات الإنسانية،والتي قد تشترك في مجرّد الفعل مع غير الإنسان،فقد تناسى هذا الإنسان العقلانية المسدّدة والمؤيدة أي التي تربط العقل بالأخلاق الأخروية وليست الدنيوية اللّتين تتنزّل الأخلاق فيهما مرتبة عالية تستند إلى الأصل الديني للإنسان .ومن هنا حاول **طه عبد الرحمن** نسج نظرية بديلة تعيد الاعتبار وفي هذا الإطار يقول:"فكان لا بدّ من وضع نظرية تقدّم بشرط التناسب فأبدلنا مفهوم التخلق مكان التعقل ومفهوم التعرف مكان التنكر وأسميناها بنظرية التعبد"(9) إنّ الأخلاق البديلة التي اعتمدها **طه عبد الرحمن** في إعادة تأسيس للسؤال الأخلاقي يقوم على جانبين:

أوّلهما أنّ الأخلاق ليست جملة من الصفات الحسنة التي تكمل سلوك الأشخاص وإنّما هي مجموعة من الصفات الضرورية لهذا السلوك بحيث إذا فقدها الفرد نزل عن رتبته كإنسان.

ثانيهما إن الأخلاق لا تنحصر في مجموعة جزئية من أفعال الإنسان بل تشمل كل الأفعال فما من فعل يأتيه الإنسان إلّا وينطبق عليه الحكم بالخير والشر،وعليه فنظرته –**طه عبد الرحمن**-الأخلاقية تنبني على التأكيد على الصلة بين الأخلاق والدين أي آن الأخلاق متصلة بالدين،ومن ثمة فرؤيته تعني على هذا الأساس:

1-أنّ الدين هو الأصل في الأخلاق

2-الدين هو الأصل في التقويم الأخلاقي للأفعال

3-الدين كله أخلاق،أحكاما ومقاصد.

والنتيجة المترتبة عمّا ذكرناه سابقا أنّ رؤية **طه عبد الرحمن** مبنية على أساس أنّ لا أخلاق دون دين ولا دين دون أخلاق.وهذا ما لم يكن يعتقد في الحضارة الغربية التي اعتبرت أن الأخلاق ليس لها علاقة بالدين ؛ومنه فالأخلاق

أكثر منها دنيوية على أن تكون أخروية؛ولهذا تكون نظرية **طه عبد الرحمن** الأخلاقية مبطلة لمسلمات النّظريات الأخلاقية غير الإسلامية،ومبطلة أيضا لمسلمات درج على الأخذ بها بعض علماء المسلمين وهي:

التفرقة بين العقل والشرع ،والتفرقة بين العقل والقلب والتفرقة بين العقل والحس؛ومن هنا كانت أركان النظرية الأخلاقية الإسلامية (نظرية التعبد)عند **طه عبد الرحمن** ثلاث:

أوّلهما ركن الميثاق الأوّل والأخلاق الكونية، وهو الذي يتعلّق بالجمع بين العقل والشرع، ويتفرّع عنه أنّ الأخلاق الإسلامية أخلاق كونية لأنّها أخلاق مؤسسة أي أنّها ليست ناقصة ولا محدودة.[10]

ثانيهما ركن شق الصدر والأخلاق العميقة،يتعلّق الأمر هنا بالجمع بين القلب والعقل ،ويتفرّع عنه أنّ الأخلاق الإسلامية أخلاق عميقة لأنّها أخلاق تطهير لا تجميل،وتأهيل لا تثبيط،وتحديد لا تقليد [11].

ثالثهما ركن تحويل القبلة والأخلاق الحركية ،وهو الذي يتعلق بالجمع بين العقل والحس ،ويتفرع عنه أنّ الأخلاق الإسلامية أخلاق حركية ،لأنّها أخلاق إشارة لا عبارة،وانفتاح لا انغلاق،واجتماع لا انقطاع.[12]

ممّا سبق ذكره نستنتج أنّ الأخلاق السامية هي أخلاق تحث على العلم،وعلى الصدق وعلى الإخلاص في العمل،ومعناه الأخلاق في العمل ما جاء في كتاب **طه عبد الرحمن** هو التقرّب بصالح الأعمال وأتقنها إلى اللّه

وهنا إشارة واضحة وأكيدة بصلة الأعمال بالأخلاق وبالدين وهذا الأمر الذي لم تستطع الحضارة الغربية حسب **طه عبد الرحمن** فهمه أو التنكر له الأمر الذي جعل الحضارة الغربية تمر بأخطر مرحلة في تاريخ الإنسانية كلها تهدّد أمنها كالتفكك والحروب والإجرام و الانحلال الأخلاقي ،لأنّها بكل بساطة حضارة لا دينية لا تهتمّ إلّا بالرفاه المادي لا غير،إنّ الغرب بهذا المعنى فقد المرتكزات الروحية والثقافية والدينية ،فلم يعد هناك شيء يرتكز إليه فالديانة النصرانية فقدت مقوّماتها والتوق إلى الروحانيات انتهى واضمحل في النّفوس ،وأصبح في الغرب نوع من الصراع ،ونوع من الطباع الشامل تتوق إليه الأجيال القادمة.[13]

وتبعا للفراغ الروحي الذي يعانيه المجتمع الغربي،وانغماسه في مختلف الشهوات بعيدا عن الأخلاق والدين يؤدى **طه عبد الرحمن** أنّ الحضارة الغربية بنظامها العلمي والتقني لا يمكن درأ آفاتها إلّا بالعودة إلى الإسلام أي تخليق النّظام العلمي والتقني وفق المبادئ الأخلاقية التي جاء بها الإسلام،وترك العمل بمبدأ السيادة على الكون،ودفع المخاطر والأهوال المصاحبة لها على الدوام وفق مبدأين أساسيين وهما التعقل والخلق،أمّا التعقل وهو أهمّ الفضائل التي يتميّز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى ،يقضي بتحصل المعرفة المفيدة التي تجنب الإنسان ما تخشى عواقبه من أفعال،وفي هذا يقول **طه عبد الرحمن**:"التعقل هو التحفظ في اصطناع تقنية ممكنة والتصوّن من الإكثار من هذه الوسائل دفعا لسوء العواقب"[14] ،فالتعقل هو الدخول في عمل وفق الطاعة العقلية لسيد الكون أي التعقل هو التخلص من الأعمال لأجل غايات ناقصة دنيوية والعمل على تأطير هذه الأعمال لغايات دينية تهدف إلى إرضاء اللّه لا الإنسان.

وأمّا التخلّق فهو جوهر الإنسان وماهيته،فماهية الإنسان ماهية خلقية ،أي أنّ المتخلّق هو الذي يجعل القيّم الأخلاقية والروحية هي طلب أفعاله،أي لا تكون هذه الأفعال نافعة ومشروعة إلّا إذا سعت إلى تحقيق هذا المقصد الخلقي والروحي:"فالتخلّق عبارة عن الاشتغال الذي يدفع عن الإنسان آفة العمل بمبدأ السيادة ويجلب له الحكمة في اختراع التقنية والتأييد في استثمارها"[15] .

ويعمد **طه عبد الرحمن** إلى الربط بين هذين المبدأين التعقل والتخلق لوصل الإنسان بمرتبة العبادة،فمتى وصل العقل إلى مرتبة التعبد طمع في تحصيل المعية الإلهية أثناء سعيه من أجل ترسيخ الذات الإنسانية وتصير بذلك حركة الإنسان في الكون-بفضل العبادة-امتدادا لتأمله في العالم الحسي الطبيعي وصارت الحسيات عنده معابر للعقليات،فالعبادة همزة وصل بين النظر والفعل وبتعبير طه عبد الرحمن 'مجال الاعتبار':"فمقتضى الاعتبار إذن هو

العبور من أحكام النظر إلى أسرار العبر،فيكون المعتبر هو من يرى الظواهر على أنها آيات،وينسب السيادة على الكون غلى صاحب هذه الآيات"[16] .

وإذا كان العقل الحداثي الطامع في ترسيخ الذات الإنسانية باسم السيادة يبدع الآلة،ليجيب عن السؤال الذي مفاده 'كيف نغير العالم؟'،فإنّ العقل الأخلاقي الإسلامي الطامع في ترسيخ الذات الإنسانية باسم العبادة،يبدع الآلة بغرض الجواب على السؤال الذي مفاده 'كيف نعمّر العالم؟'،والذي غايته التأسيس لنظام عالمي وتقني يحقق السعادة والاستقرار للإنسان،وغاية التعمير والعمارة،هذه ترتبط في النظرية الأخلاقية الإسلامية بغاية الخلافة.

فالمهمة الوجودية التي أنيطت بعهدة الإنسان كما رسمتها العقيدة الإسلامية وبما بنيت عليه من الترقي الإنساني فردا أو مجتمعا عبر التعامل مع الكون اعتبارا وتعميرا في خط العبودية للّه تعالى،من شانها أن تضفي على الوجود الإنساني القيمة الجليلة،إذ تجعل منه المخلوق الأعظم في الكون،إذ هي مهمة تفسح أمامه من الآمال ما يدفع به إلى المزيد من الفعل في الكون من أجل الاقتراب من اللّه،لا الدفع بالإنسان إلى الإرتكاس والسقوط في هاوية الهلاك،والشعور باليأس والقنوط لما يظن ان الحياة قد استنفذت أغراضها،وأن وجودها في الكون قد أضحى ضربا من العبث،وهو ما سقطت فيه بعض المجتمعات قديما وحديثا وخصوصا بلاد الغرب.[17]

وخلاصة القول أنّ طه عبد الرحمن أراد إضفاء نظرية أخلاقية إسلامية تسعى إلى إضفاء طابعا دينيا على العلوم بتناول غايتها في المقام الأول ،والأهداف التي يجب أن تناط بالبحث العلمي ثانيا،وهذا من شانه أن يسخّر هذه العلوم لازدهار الإنسان وصيانة الخلق،لا تدميره وتغييره كما يسعى إلى ذلك العقل الحداثي ؛وعلى هذا الأساس رأى طه عبد الرحمن ضرورة وقوف الفكر الإسلامي في وجه النموذج الغربي،وذلك بطرح مفاهيمه وقيمه المضطربة والكشف عن زيفها وفسادها،وذلك بتقديم منهج يتناغم مع الطبيعة الأخلاقية للإنسان،مستمدة من أصول الشريعة الإسلامية،يعدّ بمثابة المخرج الأمن من الأزمات التي تكابدها الإنسانية جرّاء اتباع المنهج الحداثي،فالنظرية الإسلامية الأخلاقية غايتها ترشيد أفكار الإنسان وأفعاله واكتسابها بعدا دينيا وأخلاقيا؛فالاستعمال الجيد للتقنية وتوّجهها لصالح غايات روحية يقلب المعادلة من سيادة الإنسان على التقنية.

من أجل هذا عمل الإسلام على سدّ الثغرة بين العلم والتقنية وإحداث توازن بين عنصري الروح والمادة ،ولا يكون هذا حسبه إلّا **بالعقلانية المسددة** والتي هي بمثابة البديل الممكن لمعالجة حدود العقل المجرّد ،أي هي عملية إكمال لهذا الفعل ويتم هذا من خلال الربط بين النّظر المجرّد والعمل بمقتضى الشرع،أي العقل الذي يبتغي بصاحبه جلب منفعة أو دفع مضرة متوسّلا في ذلك بإقامة الأعمال التي فرضها الشرع.

إذن حاول الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن أن يعيد الاعتبار لسؤال الأخلاق باعتباره البوّابة الرئيسية لإعادة إحياء الإنسان بعدما تقاذفته قوى المادية الناتجة عن عمليّات العقلنة غير المسدّدة بالأخلاق،وكذا كصناعة موقف أصيل ومستقل يمكن الانطلاق منه لنقد الحداثة الغربية من خلال أرضية مغايرة،بحيث تكون الأخلاق كمدخل للنقد كمشاركة أصيلة إسلامية في تلك الحداثة الكونية.

الهوامش:

(1)-طه عبد الرحمن،سؤال الأخلاق،مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، الطبعة الأولى ،المركز الثقافي العربي، المغرب،لبنان،2000 ،ص59.

(2)-المصدر نفسه،ص59-60

(3)- المصدر نفسه،ص65

(4)- المصدر نفسه،ص66

(5)- المصدر نفسه،ص67

(6)-عبد الوهاب المسيري،الفلسفة المادية وتفكيك الانسان،الطبعة الأولى ،دار الفكر ،دمشق،2002،ص127.

(7)-Edgar Morin, science avec conscience, éditions fayard, Paris, 1982, p.14

(8)-دافيد أرنولد،الطب الأمبريالي والمجتمعات المحلية،تر:مصطفى ابراهيم فهمي،المجلس العربي للثقافة والفنون، الكويت، 1998،ص38.

(*)-مرض وبائي يبدأ بحمى وتضخم في الغدد اللّيمفاوية،يؤدّي إلى اضطربات عقلية.

(**)-مرض يسببه نقص الفيتامين.

(9)-طه عبد الرحمن،سؤال الأخلاق،ص94.

(10)- المصدر نفسه،ص142

(11)- المصدر نفسه،ص157

(12)- المصدر نفسه،ص159

(13)-أنور الجندي،الفكر العربي،دراسة نقدية،الطبعة الأولى ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،الكويت،1987،ص280.

(14)- المصدر نفسه،ص132

(15)- المصدر نفسه،ص133

(16)- المصدر نفسه،ص113

(17)-عبد المجيد نجار،خلافة الانسان بين الوحي والعقل،الطبعة الثالثة،المعهد العالي للفكر الاسلامي،الولايات المتحدة الأمريكية، 2000،ص65

المراجع:

-باللغة العربية:

1-طه عبد الرحمن،سؤال الأخلاق،مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، الطبعة الأولى ،المركز الثقافي العربي، المغرب،لبنان،2000.

2- عبد الوهاب المسيري،الفلسفة المادية وتفكيك الانسان،الطبعة الأولى ،دار الفكر ،دمشق،2002.

3-دافيد أرنولد،الطب الأمبريالي والمجتمعات المحلية،تر:مصطفى ابراهيم فهمي،المجلس العربي للثقافة والفنون، الكويت، 1998.

4-أنور الجندي،الفكر العربي،دراسة نقدية،الطبعة الأولى ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،الكويت،1987.

5-عبد المجيد نجار،خلافة الانسان بين الوحي والعقل،الطبعة الثالثة،المعهد العالي للفكر الاسلامي،الولايات المتحدة الأمريكية، 2000.

-باللغة الأجنبية:

1-Edgar Morin, science avec conscience, éditions fayard, Paris, 1982.